بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مضت بضعة أعوام منذ أصدرت العصر الأول من كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » فى سنة ١٩٤٣ ، محتوياً على تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى عصر عبد الرحمن بن الحكم ؛ وكان المفروض أن أتبع هذا العصر الأول بانجاز العصر الثانى ، محتوياً على تاريخ الخلافة الأموية ، ثم العصر الثالث محتوياً على تاريخ دول الطوائف وعصر المرابطين والموحدين ، حسبما أشرت إلى ذلك فى مقدمة العصر الأول . ولكن شغفاً خاصاً كان يدفعنى منذ البداية ، إلى دراسة المراحل الأخيرة من حياة الأمة الأندلسية ، وهى التى تتناول تاريخ مملكة غرناطة ، آخر الدول الإسلامية بالأندلس ، منذ قيامها فى منتصف القرن السابع الهجرى ، حتى نهايتها فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) ثم تاريخ « الموريسكيين » أو العرب المتنصرين ، وهم بقايا الأمة الأندلسية الشهيدة ، حتى إخراجهم نهائياً من الوطن الأندلسى . وكنت فى الواقع قد قطعت فى دراسة هذه المرحلة وإعدادها خطوات مشجعة . وكنت أشعر من جهة أخرى أنه إذا كانت المكتبة العربية ، قد ظفرت فى الأعوام الأخيرة بطائفة من الكتب والبحوث ، فى عصور الأندلس الأولى والوسطى ، فان عصورها الأخيرة ، ونهايتها المحزنة ، واستشهادها المؤسى ، لم تنل حقها من البحث ، ولم تكتب بما تستحق من عناية وإفاضة ، ولم تضمها إلى اليوم قصة شاملة .

ولهذا آثرت أن أعكف على دراسة هذا العصر الأخير من تاريخ الأندلس ، وإخراجه قبل العصرين الثانى والثالث . وقد استطعت بعد أعوام من البحث والجهد

المتواصل . أن أنجز هذا السفر الذى أضعه الآن بين يدى القارئ . عن غروب الأندلس ونهايتها . وليس فى صحف التاريخ الإسلامى كلها . على سعة آفاقه ، وتباين عصوره . ووفرة أحداثه . ما يثير من الشجن والأسى ، ومن الإكبار والإعجاب معاً . قدر ماتثيره هذه المأساة الأندلسية . التى تنطوى على إبادة أمة عظيمة بأسرها . ومحو آثارها وذكرياتها وحضارتها . من الوطن الذى شادته بذكائها وعبقريتها . وسطعت فيه مدى قرون .

ولقد غاضت على كر العصور أمم وحضارات كثيرة . ولكنها غاضت بفعل الزمن ، وفعل أحداثه وتطوراته . أما الأمة الأندلسية فكان مصرعها أمراً مدبراً ، قررته السياسة الإسبانية ، ورسمت لتحقيقه خططها الوندالية . وقامت بتنفيذه حكومات تضطرم تعصباً وبغضاً للأمة المغلوبة ودينها وحضارتها . ولبثت الأمة الشهيدة ، بعد أن فقدت سيادتها وحريتها واستقلالها أكثر من قرن ، تعانى أفدح الآلام المادية والمعنوية ، من حياة الذلة والمهانة ، وعسف الاجراءات والقوانين المرهقة ، وقضاء محاكم التحقيق . حتى مزقت فلولها الباقية . وقضت فى النهاية شهيدة التعصب والجهالة والبغى ، ولكنها قضت أبية كريمة ، وسجلت بإبائها وجهادها . أروع صحف البطولة والاستشهاد القومى .

* * *

ومن الأسف أن تكون المصادر الإسلامية ، فى هذه المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ، قليلة ضنينة . أجل لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة فى مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب ، وما كتبه عنها ابن خلدون حتى حوادث عصره ، وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرى عن تاريخ مملكة بنى مرين ، قرينة مملكة غرناطة ، وعضدها الأيمن فى الجهاد . ولكن هذه المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . ولا تكاد نظفر بعد ذلك ، خلال القرن التاسع الهجرى ، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة ، عصر الإنحلال والسقوط النهائى ، بأية مراجع إسلامية ذات شأن ، وليس لدينا من

نهاية الأندلس

وتاريخ العرب المتنصرين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هو الحلقة الرابعة والأخيرة من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » . وهو يحتوى على تاريخ مملكة غرناطة آخر الدول الإسلامية بالأندلس ، ثم تاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين وهم بقايا الأمة الأندلسية حتى إجلائهم نهائياً عن اسبانيا . وهو مؤلف مستقل بذاته . ولكنه فقط حلقة فى نفس السلسلة الأندلسية التى تشتمل على أربعة عصور من التاريخ الأندلسى . صدر منها العصر الأول تحت عنوان « دولة الإسلام فى الأندلس » منذ الفتح إلى نهاية عصر عبد الرحمن ابن الحكم (ويقع فى ثلاثمائة صفحة) . وسيصدر عما قريب ملحق لهذا العصر يتناول عصر الفتنة الأندلسية الكبرى ، ويصل به حتى نهاية عصر عبد الرحمن الناصر (منتصف القرن الرابع الهجرى) .

كتب أخرى بقلم المؤلف

١ — ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى .
٢ — مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام .
٣ — الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .
٤ — تراجم إسلامية شرقية وأندلسية .
٥ — مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية .
٦ — ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى .
٧ — المآسى والصور الغوامض .
٨ — المذاهب الاجتماعية الحديثة .

ويمكن الحصول على كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » و « نهاية الأندلس » وكذلك على باقى كتب المؤلف من المؤلف (ت ٤٤٦٨٣) ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكتبات الهامة .

obeikandl.com

تراث الرواية الإسلامية فى تلك المرحلة القاتمة من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى رواية صاحب « أخبار العصر ، فى انقضاء دولة بنى نصر » عن سقوط غرناطة فى أيدى الإسبان ، وما نقله إلينا المقرى عن تلك المرحلة الأخيرة من شذور ضئيلة متفرقة . أما عن مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وهم بقايا الأمة المغلوبة ، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة ، لاتشفى طلعة الباحث . ولذا كان جل اعتمادنا فى استعراض هذه المرحلة الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ، على المصادر الغربية . وإذا استثنينا المصادر الإسبانية التى يفيض معظمها بالمؤثرات القومية والدينية ، فانه لما يشهد للبحث الغربى بالإعتدال والروية ، وروح الإنصاف ، ما يبديه فى معظم المواطن ، من تقدير موثر لعبقرية الأمة المغلوبة وحضارتها ، وروعة كفاحها فى سبيل الذود عن حياتها وكرامتها وثرائها ، وما يبديه بالأخص من عطف على محنتها وآلامها ، ومن استنكار لخطط السياسة الإسبانية وأساليب ديوان التحقيق فى العمل على إبادتها . ويكفى أن ننقل فى هذا الموطن تلك العبارة الموجزة القوية ، التى يجمل فيها الدكتور « لى » ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين فى مقدمة كتابه إذ يقول : « إن تاريخ الموريسكيين لايتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر باسبانيا فى زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » .

وقد عنيت بأن أسرد تاريخ اسبانيا النصرانية بايجاز إلى جانب تاريخ مملكة غرناطة ؛ وعنيت فى مأساة العرب المتنصرين بالإفاضة فى سرد خطط السياسة الإسبانية لإبادة الأمة المغلوبة ، وفى الإلمام بتاريخ محاكم التحقيق ، ووسائلها وإجراءاتها المروعة ، التى غدت مضرب الأمثال لكل قضاء وندلى ، وما كانت تنزله بالعرب المتنصرين من صنوف الويل والتعذيب ؛ كما عنيت باستعراض القوانين الغريبة المرهقة التى كانت تسنها الحكومات الإسبانية المتوالية ، للقضاء على حضارة

الأمة المغلوبة ، وعلى دينها ولغتها . وكل خواصها وآثارها . وعنيت أخيراً بالإفاضة فى تفاصيل قانون النفى النهائى ، لبقايا الأمة الشهيدة من وطنها القديم . واجراءاته وطرق تنفيذه ، وما ترتب عليه بالنسبة لاسبانيا النصرانية من الآثار الاجتماعية والاقتصادية المخربة . وعلى الجملة فقد بذلت وسعى لكى أقدم إلى القارئ تفاصيل هذه القصة الأندلسية المحزنة — قصة نهاية الأندلس — وهى التى تخرج اليوم بالعربية لأول مرة ، كاملة شاملة ، فى أوضح الصور وأتمها .

ويضم القسم الرابع من الكتاب لمحة عن النظم السياسية والاجتماعية ، التى عاشت فى ظلها آخر الدول الإسلامية بالأندلس ، واستعراضاً موجزاً للحركة الفكرية فى هذا العصر . وهنا أيضاً يشعر الباحث بقلة المراجع الإسلامية ، ولاسيما المتعلقة منها بالعصر الأخير . ومن المحقق أن المقرى بما ينقله فى كتابيه « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » من شذور وتراجم عديدة ، عن أصول ضاع معظمها على الأغلب . يسد أكبر فراغ فى هذا الموطن . بيد أنه يقصر أيضاً عن إمدادنا بكل مانطمح إليه من تفاصيل الحركة العقلية فى الأندلس قبيل سقوط غرناطة ، وبعده خلال القرن المظلم ، الذى أخذ فيه تراث الأمة المغلوبة الروحى والعقلى ، يغيض شيئاً فشيئاً ، فى غمر الاضطهاد والنسيان والمحن .

وقد بدأ البحث الحديث منذ أكثر من قرن يعنى بتاريخ اسبانيا المسلمة ، ويحله مكانته الحقة من التاريخ الأوربى ، بعد أن عملت السياسة الإسبانية والتفكير الإسبانى على حجبه وطمس معالمه زهاء ثلاثة قرون . ومن الغريب أن اسبانيا النصرانية لم تفطن إلا فى العصر الأخير إلى أن تاريخ اسبانيا المسلمة إنما هو جزء لايتجزأ من تاريخها القومى ، وأن عظمة اسبانيا المسلمة ، وعظمة حضارتها وذكرياتها ، إنما هى صفحات وضاءة فى تاريخ اسبانيا العام . ومن ثم كان اهتمام دوائر البحث الإسبانى فى العصر الأخير بتاريخ الأندلس والحضارة الأندلسية ، ونشر المراجع والوثائق الأندلسية المتعلقة به ، بعد أن طال احتجابها فى أقبية الإسكوريال ، ومحاولة

تناوله بروح جديدة ، تحررت إلى حد كبير من المؤثرات القومية والدينية ، التى باعدت فى الماضى بينه وبين روح الإنصاف والتقدير الحق . وقد ظهرت آثار هذا التطور منذ أوائل القرن الماضى فيما يبديه بعض أكابر الكتاب والمؤرخين الإسبان مثل كوندى ولورنتى وجاينجوس وبكاتوستى فى مؤلفاتهم من تقدير لعظمة الأمة الأندلسية ورفيع حضارتها ، ومن نقد بالغ لموقف السياسة الإسبانية منها ومن تراثها .

وإذا كنت قد استطعت باخراج هذا السفر أن أحقق أمنية لبثت تساورنى مدى أعوام طويلة ، فانى أرجو فى الوقت نفسه أن أكون قد وفقت باخراجها ، إلى المساهمة فى سد جانب من ذلك النقص الذى مازال ملحوظاً فى كتابة التاريخ الأندلسى .

القاهرة فى جمادى الثانية سنة ١٣٦٨
الموافق ابريل سنة ١٩٤٩

محمد عبد الله عنان